

مُعْضَلَةُ الثَّالُوثِ

المحاضرة ٢: شهادة الكتاب المقدس

أ.ر. سي. سرول

بَيْنَمَا نُنْتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِعَقِيدَةِ الثَّالُوثِ، نُذَكِّرُ بِأَنَّهُ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْأُولَى تَكَلَّمْنَا بِإِيجَازٍ عَنِ مَفْهُومِ تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، أَيْ التَّأَكِيدِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَأَشْرْنَا إِلَى قِيَامِ جِدَالٍ بِشَأْنِ الْفِتْرَةِ فِي تَارِيخِ الْفِدَاءِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَاحِدٍ. هَلْ كَانَ قَائِمًا فِي بَدَايَةِ الْخَلْقِ، كَمَا يُؤَكِّدُ الْمُعْتَقِدُ الْقَوِيمُ، أَمْ أَنَّهُ نَشَأَ لَاحِقًا؟

أَمَّا الْيَوْمَ، فَنُرِيدُ أَنْ نَتَكَلَّمَ عَنِ الرَّابِطِ بَيْنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَالْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَدَعَوْنِي أُنَبِّدُ بِالْقَوْلِ إِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنَا أَيُّ تَحْدِيدٍ وَاضِحٍ لِلثَّالُوثِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، إِلَّا أَنَّنَا نَجِدُ إِشَارَةً مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ إِلَى الثَّالُوثِ فِي صَفَحَاتِ تَارِيخِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ. إِحْدَى الْإِشَارَاتِ الْمُهْمَةِ، هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَكَلَّمْنَا عَنْهَا مِنْ مِيزَانِ مُخْتَلِفٍ، وَمِنْهَا اسْتِعْمَالُ الْجَمْعِ لِتَسْمِيَةِ اللَّهِ، الْوَهِيمِ. يَعْتَبِرُ الثَّقَادُ اسْتِعْمَالَ هَذَا الْأَسْمِ شَكْلًا وَاضِحًا مِنْ أَشْكَالِ الْإِيمَانِ بَعْدَةَ إِلَهَةٍ، إِلَّا أَنَّ الْأَخْرَيْنَ رَأَوْا فِي هَذَا الْأَسْمِ بِصِغَةِ الْجَمْعِ، لَا سِيمًا وَقَدْ تَبِعَهُ فِعْلٌ بِصِغَةِ الْمُفْرَدِ، نَوْعًا مِنَ الْإِشَارَةِ الضَّمْنِيَّةِ إِلَى شَخْصِيَّةِ اللَّهِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَوْجُهَةِ.

وَالْآنَ، دَعَوْنِي أَظْلِعُكُمْ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ فِي هَذَا الصَّدَدِ. أَوَّلًا، لَا أَظُنُّ أَنَّ الْأَمْرَ يُشِيرُ بِالضَّرُورَةِ إِلَى الثَّالُوثِ، لِأَنَّ هَذِهِ قَدْ تَكُونُ بِبَسَاطَةٍ صِغَةً أَدَبِيَّةً، مُشَابِهَةً لِمَا نُسَمِّيهِ الْجَمْعَ الْاِفْتِتَاحِيَّ أَوْ الـ"نَحْنُ" الْاِفْتِتَاحِيَّةَ، عِنْدَمَا يَسْتَعْمِلُ الْكَاتِبُ صِغَةَ الْجَمْعِ لِإِيصَالِ فِكْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ إِنَّنَا نَرَى جَمْعَ الْعِظْمَةِ حَيْثُ يَقُومُ مُلُوكٌ، أَوْ بَابَاوَاتٌ، أَوْ أَصْحَابُ مَرَكَزٍ عَلِيًّا بِاسْتِهْلَالِ تَعْلِيقَاتِهِمْ بِالْقَوْلِ "نَحْنُ نَقْضِي"، أَوْ "نَحْنُ نُعَلِنُ"، إِلَى آخِرِهِ. وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْحَالُ. لَكِنَّ التَّفْسِيرَ الْأَكْثَرَ احْتِمَالًا هُوَ اعْتِبَارُ هَذِهِ وَسِيلَةً أَدَبِيَّةً عِبْرِيَّةً تُعْرَفُ بِجَمْعِ الْقُوَّةِ. وَجَمْعُ الْقُوَّةِ هَذَا يُوجِّهُ الْاِنْتِبَاهَ إِلَى عُمُقِ شَخْصِيَّةِ اللَّهِ الَّذِي تَكْمُنُ فِيهِ كَافَّةُ عَنَاصِرِ الْاَلُوْهِيَّةِ وَالْجَلَالَةِ.

إِذَا، أَنَا أَقُولُ عَلَى الْأَقْلِ إِنَّ تَسْمِيَةَ الْوَهِيمِ مُتَنَاعِمَةٌ مَعَ عَقِيدَةِ الثَّالُوثِ، وَقَدْ تُشِيرُ فِي الْوَاقِعِ إِلَى هَذَا الْاِنْتِجَاهِ، لَكِنَّ الْكَلِمَةَ نَفْسَهَا لَا تَقْتَضِي أَنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْهَا عَقِيدَةَ الثَّالُوثِ. عِلَاقَةٌ عَلَى ذَلِكَ، بَيْنَ هِلَالَيْنِ لِلْأَشْخَاصِ بَيْنَكُمْ الَّذِينَ يُبْدُونَ بَعْضَ الْاهْتِمَامِ بِالتَّحْمِينِ الْفَلْسَفِيِّ، لَا سِيمًا بِالْجُزْءِ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الَّتِي يُعْنَى بِالْمَآوَرَاثِيَّاتِ وَبِمَسَائِلِ الْوُجُودِ، رَبَّمَا تَذَكَّرُونَ أَنَّهُ فِي الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، إِحْدَى الْمَسَائِلِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَ الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيُّونَ يُجَاوِلُونَ حَلَّهَا هِيَ مُشْكَلَةُ مَا يُعْرَفُ بِـ"الْوَاحِدِ وَالْكَثِيرِ". جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْأُولَى مُكْرَسٌ لِهَذِهِ الصُّعُوبَةِ.

كَيْفَ نَفْهَمُ أُمُورًا عِدَّةً بَعِيدًا عَنِ اخْتِبَارِنَا؟ هَلْ نَعِيشُ فِي كَوْنٍ مُتْرَابِطٍ مَنْطِقِيًّا أَسَاسًا، أَمْ أَنَّنَا نَعِيشُ فِي كَوْنٍ فَوْضُوِيٍّ أَسَاسًا؟ وَافْتِرَاضَاتِ الْعِلْمِ مَثَلًا، تُفِيدُ بِأَنَّنا لِكَيْ نَكْتَسِبَ الْمَعْرِفَةَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ تَرَابِطٍ مَنْطِقِيٍّ، وَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ نَوْعٍ مِنْ تَرْتِيبٍ لِلْأُمُورِ، وَإِلَّا تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ مُسْتَحِيلَةً. إِذَا، عَمَلْنَا كُلَّهُ فِي مَجَالِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ يَفْتَضِي ضِمْنًا مَا يَعْتَبِرُهُ كَارِلُ سَاجَانُ نِظَامًا كَامِلًا مُتَنَاعِمًا، وَلَيْسَ فَوْضِيًّا. إِذَا، هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ شَيْءٍ يُضْفِي وَحْدَةً عَلَى كُلِّ التَّنَوُّعِ الَّذِي تَخْتَبِرُهُ فِي الْعَالَمِ.

وَفِي الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ، بَرَزَتْ مُحَاوَلَةٌ لِإِيجَادِ وَحْدَةٍ وَتَنَوُّعٍ بِطَرِيقَةٍ مُتْرَابِطَةٍ مَنْطِقِيًّا. فِي الْوَاقِعِ، تَأْتِي كَلِمَةُ "كَوْنٌ" مِنْ مَفْهُومِ الْوَحْدَةِ وَالتَّنَوُّعِ مَعًا، أَيُّ أَنَّنَا نَعِيشُ فِي مَكَانٍ يَضُمُّ تَنَوُّعًا كَبِيرًا لِكِنَّهُ مُوَحَّدٌ؛ وَقَدْ سَعَى الْفَلَسَافَةُ الْيُونَانِيُّونَ (وَأَقُولُ إِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ سُدىً) إِلَى إِيجَادِ مَصْدَرِ الْوَحْدَةِ وَالتَّنَوُّعِ مَعًا.

لَكِنْ فِي الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ، وَفِي النَّظَرَةِ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَى الْعَالَمِ يَجِدُ التَّنَوُّعُ كُلَّهُ وَحْدَتَهُ الْمُطْلَقَةَ فِي اللَّهِ نَفْسِهِ. وَمِنْ اللَّافِتِ أَنَّنَا حَتَّى فِي كَيَانِ اللَّهِ نَجِدُ الْوَحْدَةَ وَالتَّنَوُّعَ مَعًا، بِالْأُخْرَى، الْأَسَاسُ الْمُطْلَقُ لِلْوَحْدَةِ وَالتَّنَوُّعِ. لَكِنْ، كَمَا قُلْتُ، تَمَّ التَّلْمِيحُ إِلَى ذَلِكَ بِأَفْضَلِ طَرِيقَةٍ مُمَكِّنَةٍ فِي الْكَلِمَاتِ الْإِفْتِتَاحِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ مَعَ مَفْهُومِ اسْمِ الْوَهِيمِ. لَكِنْ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، أَيْضًا فِي قِصَّةِ الْخَلْقِ تَرَى رُوحَ اللَّهِ فَاعِلًا فِي الْخَلْقِ، صَانِعًا شَيْئًا مِنْ لَاشَيْءٍ، وَيُلَانِمُ مَعَايِيرَ الْأُلُوْهِيَّةِ الظَّاهِرَةِ مَثَلًا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. إِذَا، هَذَا تَلْمِيحٌ آخَرَ لِشَخْصِيَّةِ اللَّهِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَقَانِيمِ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ.

وَمُجَدِّدًا، فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ كُلِّهِ، وَفِي نَظَرَتِهِ لِمَجِيءِ عَبْدِ الرَّبِّ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، تُوجَدُ مَرَاجِعُ أُخْرَى تُبَيِّنُ شَخْصِيَّةَ اللَّهِ الثَّالُوْثِيَّةِ. الْمَرَاجِعُ الَّذِي سَأَذْكُرُهُ بَيْنَ هِلَالَيْنِ، بَدَلًا مِنْ الْعَوْصِ فِي الْمَوْضُوعِ وَالْعَجْزِ عَنِ التَّقَدُّمِ، هُوَ نَصُّ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ تَمَّ الْاِقْتِبَاسُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَنَصُّ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي غَالِبًا مَا تَمَّ الْاِقْتِبَاسُ مِنْهُ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ نَصِّ آخَرَ هُوَ الْمَزْمُورُ ١١٠، الَّذِي يَبْدَأُ بِدَايَةِ غَرِيبَةٍ جَدًّا حِينَ يَقُولُ كَاتِبُ الْمَزْمُورِ "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَسْمَكَ... عَفْوًا، إِنَّهُ الْمَزْمُورُ ٨. جَاءَ فِي الْمَزْمُورِ ١١٠ "قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَن يَمِينِي".

عَلَى نَحْوِ مُبَيِّنٍ، عِنْدَمَا تَرَى رِبْطَ اسْمِ اللَّهِ "يَهُوه" بِاللَّقَبِ "أَدُونَاي" فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، فَإِنَّكَ تَرَى اسْمَ اللَّهِ الشَّخْصِيَّ، يَهُوه، وَلَقَبَهُ الْأَعْلَى أَوْ الْأَسْمَى "أَدُونَاي" مُرْتَبِطًا بِهِ. عِنْدَمَا خَلَطْتُ بَيْنَ الْمَرَاجِعِ مُنْذُ قَلِيلٍ وَتَكَلَّمْتُ عَنِ الْمَزْمُورِ ٨، يَمُ بَدَأُ الْمَزْمُورُ الْقَائِمُ؟ "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، يَا يَهُوه، أَدُونَاي، مَا أَسْمَكَ فِي كُلِّ الْأَرْضِ!" حَيْثُ يُوجَدُ تَطَابُقٌ وَاضِحٌ بَيْنَ أَدُونَاي وَيَهُوه. لَكِنَّ مَا تَجِدُهُ فِي هَذَا النَّصِّ الرَّائِعِ، فِي الْمَزْمُورِ ١١٠، هُوَ إِجْرَاءُ اللَّهِ حَدِيثًا مَعَ رَبِّ دَاوُدَ "قَالَ الرَّبُّ (يَهُوه) لِرَبِّي (أَدُونَاي): اجْلِسْ عَن يَمِينِي". بِالطَّبَعِ، هَذَا مَا يُوضِّحُهُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ، وَيَتَكَلَّمُ عَن كَوْنِ يَسُوعَ ابْنِ

دَاوُدَ، وَرَبَّهُ. إِذَا، نَحْنُ نَرَى إِشَارَةً أُخْرَى إِلَى الْبُعْدِ الْمُتَعَدِّدِ لِكَيَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْمَزْمُورِ ١١٠. وَالْمَزْمُورُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي يُعْلِنُ أَنَّ ابْنَ اللَّهِ سَيَكُونُ كَاهِنًا إِلَى الْأَبَدِ، كَاهِنًا أَبَدِيًّا عَلَى رُتْبَةِ مَلِكِي صَادِقٍ.

عِنْدَمَا تَتَنَاوَلُ الْعَهْدَ الْجَدِيدَ، لَا يَبْدُو كَمَا لَوْ أَنَّ الْعَهْدَ الْجَدِيدَ يُنْكَرُ تَأْكِيدَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاحِدٍ. إِنَّ مَفَاهِيمَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاحِدِ الرَّاسِخَةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ لَيْسَتْ مُفْتَرَضَةً فَحَسْبُ، بَلْ مُكْرَّرَةٌ مَرَارًا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. سَأَعْطِيكُمْ مَثَلًا تَوْضِيحِيًّا أَوْ أَمَثَلَةً تَوْضِيحِيَّةً عِدَّةً عَلَى الْأَمْرِ. فَلْنَنْظُرْ أَوَّلًا إِلَى مَقْطَعٍ مَشْهُورٍ جِدًّا فِي سِفْرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ. فِي سِفْرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ، الْأَصْحَاحُ ١٧ وَابْتِدَاءً مِنَ الْآيَةِ ٢٢، حِينَ يَصِلُ بُولُسُ إِلَى مَرْكَزِ الثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، نَقَرَأُ "فَوْقَ بُولُسٍ فِي وَسْطِ أَرِيُوسَ بَاغُوسَ (أَوْ مَارْسَ هِيلِ) وَقَالَ: أَيُّهَا الرَّجَالُ الْأَثِينِيُّونَ! أَرَاكُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ كَأَنَّكُمْ مُتَدِينُونَ كَثِيرًا، لِأَنِّي بَيْنَمَا كُنْتُ أَجْتَازُ وَأَنْظُرُ إِلَى مَعْبُودَاتِكُمْ، وَجَدْتُ أَيْضًا مَذْبَحًا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ: "لِلَّهِ مَجْهُولٍ".

وَالآنَ، دَعُونِي أَقُومُ بِمُدَاخَلَةٍ بَسِيْطَةٍ لَوْ سَمَحْتُمْ. يُلَاحِظُ بُولُسُ فِي بَدَايَةِ وُصُولِهِ إِلَى أَثِينَا أَنَّ رُوحَهُ انْتَزَعَتْ فِي دَاخِلِهِ، وَشَعَرَ بِالْإِحْبَاطِ لِأَنَّهُ رَأَى الْمَدِينَةَ مُنْدَفِعَةً وَرَاءَ عِبَادَةِ الْوَتَنِ، وَأَيْنَمَا ذَهَبَ كَانَ يَرَى دِيَانَةً مُزَيَّفَةً. وَلَمَّا ذَهَبَ إِلَى أَرِيُوسَ بَاغُوسَ، حَيْثُ يُوجَدُ مَعْبُدُ مَارْسَ فِي أَثِينَا، مَرَّ بِجَمِيعِ الْمَعَابِدِ الْأُخْرَى، وَعَايَنَ هَذِهِ الْمُمَارَسَةَ الدِّينِيَّةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا حَظَّ كَمَا لَوْ أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ كَانُوا خَائِفِينَ أَنْ يَنْسُوا إِلَهًا، فَكَتَبُوا عَلَى الْمَذْبَحِ "لِلَّهِ مَجْهُولٍ".

سَنَنْتَظِرُكَ بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى مَا قَالَهُ بُولُسُ عَنِ الْأَمْرِ، لَكِنْ دَعُونِي لِلْحِظَّةِ أُعَلِّقُ عَلَى الْأَمْرِ بَيْنَ هِلَالَيْنِ. أَحَدُ الْأُمُورِ الْأَكْثَرِ إِذْهَاشًا الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي دِرَاسَاتِي الْعُلْيَا فِي السِّتِينِيَّاتِ، أَيُّ فِي الْعَامِ ١٩٦٠ وَلَيْسَ الْعَامَ ١٨٦٠، هُوَ الدَّلِيلُ الْمُنْبَثِقُ مِنَ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا اللَّاهُوتِيَّةِ وَعُلَمَاءِ الْاجْتِمَاعِ، الَّذِينَ كَانُوا يَدْرُسُونَ الْآرَاءَ الدِّينِيَّةَ التَّابِعَةَ لِقَبَائِلِ بَدَائِيَّةٍ عِدَّةٍ فِي الْعَالَمِ، وَالَّتِي تُفِيدُ بِأَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ظُهُورِ مَذْهَبِ حَيَوِيَّةِ الْمَادَّةِ الَّذِي كَانَ سَائِدًا فِي ثَقَافَتِهِمْ، كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الثَّقَافَاتِ الْبَدَائِيَّةِ، إِنَّ تَمَّ سَبْرُ غُورِهَا مَعَ الْجِيلِ الْقَدِيمِ الْحَكِيمِ فَإِنَّهَا تَتَكَلَّمُ عَنِ الْإِلَهِ الْمَوْجُودِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى، أَوْ الْإِلَهِ الَّذِي تَمَّ إِبْعَادُهُ عَنْهُمْ، وَالَّذِي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحَوَّرَ مُمَارَسَتِهِمُ الدِّينِيَّةَ الْيَوْمِيَّةَ، كَانَ رَاسِخًا فِي إِدْرَاكِهِمُ الْقَبَلِيِّ لَوْجُودِ إِلَهِ عَلِيِّ عَظِيمٍ.

إِذَا، بَدَلًا مِنْ أَنْ تُثَبِّتَ تِلْكَ الْقَبَائِلُ الْبَدَائِيَّةَ فَرَضِيَّةَ مَذْهَبِ حَيَوِيَّةِ الْمَادَّةِ، عَلَى الْعَكْسِ، إِنَّ أَشْخَاصًا مِثْلَ مِيسُورِيسِ إِيلِيَادَايِ وَهَائِنْدْرِيكِ كُرَامِرِ وَعَظِيمِهِمْ، اِكْتَشَفُوا هَذَا الْعُنْصَرَ التَّقْلِيدِيَّ لَدَى تِلْكَ الْقَبَائِلِ الْمُؤَمِّمَةِ بِحَيَوِيَّةِ الْمَادَّةِ الْمُتَعَلِّقِ بِاللَّهِ، أَشْبَهَ بِاللَّهِ مَجْهُولٍ، لَمْ يَكُونُوا عَلَى تَوَاصُلٍ مَعَهُ لَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِرَايَةِ بُوْجُودِهِ؛ مَا يَتَطَابَقُ طَبَعًا مَعَ إِعْلَانِ بُولُسِ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةِ، بِأَنَّ إِلَهَ الْكُونِ كُلِّهِ أَعْلَنَ عَنْ نَفْسِهِ لِلْجَمِيعِ، وَبِأَنَّ الْجَمِيعَ تَسَلَّمَ تِلْكَ الرِّسَالَةَ، وَبِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى دِرَايَةِ بُوْجُودِ اللَّهِ الْعَلِيِّ. لَكِنْ مَا الَّذِي تَفَعَّلُهُ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ الْآثِمَةِ؟ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ

عَلَى الإِطْلَاقِ وَمِنْ دُونِ اسْتِثْنَاءٍ، نَحْنُ نَحْجِرُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةَ وَنَكْبِتُهَا، وَنَسْتَبْدِلُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي تَسَلَّمَتَاهَا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ. وَهَذَا مَا يَجْعَلُنَا مُذْنِبِينَ أَمَامَ اللَّهِ، لَكِنَّ هَذِهِ قِصَّةٌ أُخْرَى.

لَكِنَّ فِي هَذَا الوَقْتِ، وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى سَفَرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ وَأَيْتِنَا، يَذُكُرُ بُولُسُ أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ الْمَذْبَحَ التَّابِعَ لِإِلَهِ مَجْهُولٍ، وَيَقُولُ "فَالَّذِي تَتَّقُونَهُ وَأَنْتُمْ تَجْهَلُونَهُ (أَوْ مِنْ دُونِ أَنْ تَعْرِفُوهُ أَوْ بِشَكْلِ لَا أَدْرِي) هَذَا أَنَا أَنَا أَدْرِي لَكُمْ بِهِ. الإِلَهِ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ، هَذَا، إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَسْكُنُ فِي هَيْكَلٍ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي، وَلَا يُجَدَّمُ بِأَيَادِي النَّاسِ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ، إِذْ هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ. وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَحَتَمَ بِالأَوْقَاتِ الْمَعِينَةَ وَبِحُدُودِ مَسْكِنِهِمْ، لِكَيْ يَطْلُبُوا اللَّهَ لَعَلَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَهُ فَيَجِدُوهُ، مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا لَيْسَ بَعِيدًا. لِأَنَّنا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعْرَائِكُمْ أَيْضًا: لِأَنَّنا أَيْضًا دُرَيْتُهُ. فَإِذْ نَحْنُ دُرَيْتُهُ اللَّهِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ نَظَنَّ أَنَّ اللَّاهُوتَ شَبِيهَ بَدَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ حَجَرِ نَفْسٍ صِنَاعَةٍ وَاخْتِرَاعِ إِنْسَانٍ. فَاللَّهُ الآنَ يَأْمُرُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا، مُتَعَاضِيًا عَنْ أَرْمَنَةِ الْجَهْلِ. لِأَنَّهُ أَقَامَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّمًا لِلْجَمِيعِ إِيْمَانًا إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ". إِذًا، هُنَا أَيْضًا، يُؤَكِّدُ بُولُسُ مُجَدِّدًا وَبَوْضُوحًا عَلَى الْمَفْهُومِ الْيَهُودِيِّ الْكَلَّاسِيكِيِّ لِلإِيْمَانِ بِإِلَهِ وَاحِدٍ؛ إِلَهِ وَاحِدٍ صَنَعَ كُلَّ الأَشْيَاءِ وَمِنْهُ تَنْبَثِقُ كُلُّ الأَشْيَاءِ.

فَلْتَنظَرُوا إِلَى نَصِّ آخَرَ. فِي رِسَالَةِ كُورِنْثُوسِ الأُولَى الأَصْحَاحِ الثَّامِنِ، وَالأَيَةِ الرَّابِعَةِ، إِذَا أَمَكَنَّ. كَانَ بُولُسُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَكْلِ الطَّعَامِ الْمَذْبُوحِ لِلأَوْثَانِ، عَنْ مُشْكَلَةِ عَمَلِيَّةِ وَرَعَوِيَّةِ ظَهَرَتْ فِي كَنِيسَةِ كُورِنْثُوسِ. قَالَ فِي الأَيَةِ الأُولَى مِنَ الأَصْحَاحِ الثَّامِنِ "وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ مَا دُبِحَ لِلأَوْثَانِ: فَتَعَلَّمْ أَنْ لَجْمِيعِنَا عِلْمًا. الْعِلْمُ يَنْفُخُ، وَلَكِنَّ الْمَحَبَّةَ تَبْنِي. فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئًا، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا بَعْدَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ! وَلَكِنَّ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجِبُ اللَّهُ، فَهَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ. فَمِنْ جِهَةِ أَكْلِ مَا دُبِحَ لِلأَوْثَانِ: تَعَلَّمْ أَنْ لَيْسَ وَثْنٌ فِي الْعَالَمِ". تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ جَوْهَرٌ وَلَا مَعْنَى وَلَا أَهْمِيَّةٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا كِيَانٌ لِأَيِّ وَثْنٍ، "وَأَنْ لَيْسَ إِلَهٌ آخَرَ إِلَّا وَاحِدًا. لِأَنَّهُ وَإِنْ وَجِدَ مَا يُسَمَّى إِلَهًا، سِوَاءِ كَانَ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا يُوجَدُ إِلَهَةٌ كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. لَكِنَّ لَنَا إِلَهًا وَاحِدًا: الأَبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبُّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ". إِذًا، فِي الْجُمْلَةِ نَفْسِهَا الَّتِي يَنْسَبُ فِيهَا بُولُسُ الأُلُوهِيَّةَ إِلَى الْمَسِيحِ، إِنَّهُ يُعَاوِدُ التَّأَكِيدَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى وَحْدَةِ اللَّهِ أَيُّ كُونِهِ وَاحِدًا.

حَسَنًا إِذًا، لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ عَنْ إِلَهِ وَاحِدٍ، ثُمَّ يُؤَكِّدُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى الأُلُوهِيَّةِ الرُّوحِ الْقُدْسِ وَالأُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ؟ إِنَّ السَّبَبَ الَّذِي دَفَعَ الْكَنِيسَةَ إِلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ، كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا، هُوَ قِيَامُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِذَلِكَ. وَنَحْنُ نَرَى ذَلِكَ فِي صَفَحَاتِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. يَجِبُ تَخْصِيصُ سِلْسِلَةٍ مُنْفَصِلَةٍ مِنَ الْمُحَاضَرَاتِ لِلتَّأَمُّلِ فِي كُلِّ مَقْطَعٍ فِي الْعَهْدِ

الجديد ينسب الألوهيّة إلى المسيح، وأيضًا سلسلّة مُنفصلة أُخرى من المُحاضرات للتأمل في كلِّ مقطع، أو لانتقاء المقاطع التي تمّ فيها نسب الألوهيّة إلى الروح القدس.

فلننظر إلى بعض تلك المقاطع التي تتجلى فيها ألوهيّة المسيح بوضوح. نحن نرى ذلك بشكلٍ خاصٍ في إنجيل يوحنا، وسأرجع إلى إنجيل يوحنا الأصحاح الأوّل بعد قليلٍ لأنّه المقطع الأهمُّ على الإطلاق. لكنّ تذكروا أنّه في قول يسوع "أنا هو"، حين قال "أنا هو الباب" و"أنا هو الطريق والحق والحياة"، وهذا النوع من الأمور، في هذا السياق، لا سيّما في إنجيل يوحنا والأصحاح الثامن، يقول ربّنا "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائنٌ". وفي كلِّ مكانٍ وردت فيه هذه العبارة يستعمل يسوع هذه الصيغة اللغويّة التي تمّ استعمالها لترجمة اسم الله الأساسي "يهوه". وصيغته "إيجو إيمي"، أي "أنا هو، أنا هو"، هي الصيغة التي تمّت بموجبها ترجمة اسم الله من العبريّة إلى اليونانيّة. وفي أحيانٍ عدّة في إنجيل يوحنا يستعمل هذه الصيغة للإشارة إلى نفسه. وربّما نرى ذلك يتجلى بشكلٍ أوضح في الإشارة إلى إبراهيم، الذي هو من الآباء، وأبو المؤمنين والذي قرّهُ المُجتمع في أيام يسوع، هو قال: "أتريدون استعمال إبراهيم ضديّ؟ الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم (أنا كنتُ)"، لا، بل قال: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائنٌ". ويتضمّن هذا إعلانًا عن الأزليّة، وإعلانًا عن الألوهيّة. ما يفوت أناسًا كثيرًا في أيامنا، فهمه معاصرو يسوع في القرن الأوّل سريعًا، وتآرت تآثره خصومه عليه لأنّهم اتّهموه بأنّه حتّى وهو إنسانٌ جعل نفسه مساويًا لله، حتّى إنّ ادّعاء البُتوة كان يُعتبرُ تجديفًا لدى معاصريه. إذًا، جميع تلك النصوص التي يُعلن فيها يسوع أنّه الابن الذي أرسله الأب، والذي كان مع الأب في السماء وما شابه، تشهد على ذلك.

أيضًا في إنجيل يوحنا، نجد السرد اللافت لظهور يسوع بعد القيامة، حين كان بعض التلاميذ قد رأوه في غياب ثوما. أتذكرون ثوما المشكك هو قال: "إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن". في وسط هذا التشكيك، ظهر له يسوع وأراه يديه وجنبه. لم نقرأ ما إذا كان ثوما قد حقّق معه تكثيكيًا، لكنّ ماذا كان ردّ فعله؟ جثًا على ركبتيه وقال لیسوع: "رَبِّي وَالْهَي!". لاحظوا أنّه في سفر أعمال الرسل حين كان الناس مندھشين جدًّا ببولس وسيلا حتّى إنهم سجّدوا لهما وعبدوهم، انتهرهم هذان الاثنان على الفور. حتّى عندما عاين الناس ظهور الملائكة وبدؤوا يعبدون الملائكة، انتهرهم الملائكة قائلين إنّهم لا تجوز عبادتهم لأنّهم مجرّد خلائق. وها إنّ يسوع يقبل أن يعبده ثوما، من دون أن ينتهره، معتبرًا اعتراف ثوما صحيحًا؛ "رَبِّي وَالْهَي!".

كما أنّنا نرى مراجع كثيرة في العهد الجديد تُشير إلى بركة الثالوث، وصيغة الثالوث للمعمودية، وأمر المسيح بأن يتعمّد الناس باسم الأب والابن والروح القدس. من الواضح أنّ النصّ الأكثر غنى في العهد الجديد هو الآيّة

الافتتاحية لإنجيل يوحنا، حيث نقرأ في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا "في البدء كان الكلمة (أي اللوجوس)، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله". في تلك الآية الأولى ترؤن مُعضلة الثالوث، لأنه في الجزء الأول من الجملة، اللوجوس، الذي كان مع الله منذ البدء، هو أزلي، لكنته متميز عن الله، إذ تم وصفه على أنه مع الله. يمكنني أن أضيف أن الكلمة الواردة هنا هي الكلمة التي تصف المعية الأقرب والألصق. توجد كلمات مختلفة في اللغة اليونانية يمكن ترجمتها بكلمة "مع"، لكن الكلمة التي تم استعمالها هنا تعني الأقرب، وتعني عملياً وجود علاقة وجهها لوجه.

ولكن تم التميز في الجزء الأول من النص بين اللوجوس والله، ثم ماذا جاء بعد ذلك؟ والكلمة لم يكن مع الله فحسب، بل كان الله. إذا، ترى من ناحية أنه يجب التفريق بين الكلمة والله، ومن ناحية أخرى، يجب اعتبار الكلمة والله واحداً، لذا ساد مفهوم اللوجوس على الفكر الفلسفي واللاهوتي المسيحي خلال السنوات الثلاثمائة الأولى من تاريخ الكنيسة. هذا المفهوم الذي عرضه يوحنا في إنجيله غني ومهم جداً، لأنه يتابع قائلاً بشأن اللوجوس إنه كان في البدء عند الله هو ليس مخلوقاً. في الواقع "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس". وهكذا إذا، تم نسب الصفات والمميزات الإلهية إلى اللوجوس الأبدي في إنجيل يوحنا. وهذا واحد من الأسباب الرئيسية التي دفعت الكنيسة إلى وضع عقيدة الثالوث.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهسني الألم".